مجلة الباحث
موقع المجلة: https://journals.uokerbala.edu.iq/index.php/bjh/

صورة الممدوح في ديوان ابن الخياط الدمشقي (450 – 517هـ)

م.د. فاطمة محسن هبر
م.د. حنان مرزوك شدهان
جامعة كربلاء /كلية التربية للعلوم الإنسانية

التخصص العام:اللغة العربية	التخصص الدقيق:فرع الأدب / الأدب العباسي

معلومات الورقة البحثية

الكلمات الرئيسية:

الصورة ، الممدوح ، ابن الخياط الدمشقي.

المستخلص باللغة العربية:

يتناول هذا البحث موضوع الصورة في ديوان ابن الخياط الدمشقي (450 – 517هـ)؛ لكونها تمثل بنية أساسية من بنى النص الشعري في مختلف العصور، فهي الرسم اللفظي الذي يوضع فكرة الشاعر للمتلقي وفي مختلف موضوعات الشعر، من خلال دراسة ديوان الشاعر ابن الخياط الدمشقي التي لا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من الصور المعبرة عن أفكار الشاعر وعواطفه وأخيلته، فهي الوجه الظاهر لها، وخاصة فيما عرف بوصف الممدوح لإبراز صفاته، وذلك عبر استخدام المنهج التحليلي، ومن الدراسات السابقة لهذا الموضوع أنماط الصورة الشعرية في شعر ابن الخياط الدمشقي، ومنها الأمل اليأس في شعر ابن الخياط الدمشقي، تكشف النتائج عن أهمية رسم الصورة عند الشاعر لممدوحه، مما يسهم في بيان أهمية الآخر الممدوح عند الشاعر ومنزلته لديه على أختلاف فئاته، فقد عبر عن ذلك من خلال ثلاث اتجاهات؛ الأول: صورة الممدوح الجواد الكريم، والثاني: صورة الممدوح القائد البطل، والثالث: صورة الممدوح المتميز بسمات مهمة.

doi: xx.xxxx

1. المقدمة

يعد مصـــطلح الصـــورة من المصـــطلحات الحديثة التي دخلت إلى نقدنا الحديث عبر الترجمة، وهذا ما يؤكده عليه عدد من نقادنا([1])، وإذا ما عرفنا أن ترجمة المصـــطلحات إلى العربية تخضـــع لاجتهادات فردية وأن هذا المصـــطلح في النقد الإنجليزي تتجاذبه دلالات متعددة، تختلف باختلاف العصـــور والمدارس النقدية التي تناولته من النقاد والدارســين؛ ذلك أنها تعد بمثابة الجوهرة التي تجذب انتباه الســـامع ومنذ القدم، لذا أدركنا العدد الواســـع من التعاريف لهذا المصـــطلح قبل الترجمة وبعدها وهذا ما نراه عند حازم القرطاجني في بيانه لهذا المصطلح في قوله " إنَّ الأقاويل الشعرية إنما هي تصوير للأشياء الحاصلة في الوجود،

...، وإنَّ المعاني التي تتعلق بإدراك الحس هي التي تدور عليها مفاصل الشعر، وتكون مذكورة فيها لا في نفسها، والمعاني المتعلقة في الذهن ليس لمقصد الشعر حولها مدار"[2]، فما جاء به ينم عن وعي تام بالمعاني المتعلقة بالمدرك الذهني، فيما عرفها علي البطل في العصر الحديث بـــ " أنها تشكيل لغوي يكوّنها خيال الفنان من معطيات متعددة يقف العالم المحسوس في مقدمتها، فأغلب الصور مستمدة من الحواس إلى جانب ما لا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية، وإن كانت لا تأتي بكثرة الصور الحسية أو يقدمها الشاعر أحياناً كثيرة في صور حسية"[3]، لذا فهي في مجملها ترصيد لتلك العلاقات والأحاسيس التي يتعرض لها أو يكمها خيال الشاعر، وكلما زادت تلك العلاقات وتفاعلت تلك الأحاسيس نبغ الشاعر في صوغ تلك التشكيلات بأدواته اللغوية النابع من ثقافته، وهذا ما وجدناه عند شاعرنا في رسم تلك الصور الإبداعية في تجميل صور ممدوحه، ولا يمكن اغفال إن القصيدة المدحية هي الوسيلة الدعائية التي يتخذها أصحاب السلطة من رجال الدولة للوصول إلى مبتغاهم عبر إيصال صورتهم للمتلقي، ولا بد من الإشارة إلى أنّ الممدوح عند ابن الخياط لم يكن واحداً إنّما تعدد بين الأمراء والوزراء وغيرهم.

التمهيد:

الشاعر ابن الخياط الدمشقي (450–517هـ)

أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي، عُرف بلقب ابن الخياط الشاعر الدمشقي الكاتب[4]، ولد في مدينة دمشق سنة(450هـ)، اشتهر بابن الخياط نسبة إلى مهنة والده الذي كان يعمل خياطاً، أما هيئته فقد وصفه صاحب الخريدة قائلاً: " كان من ينظر إلى ابن الخياط يعتقده أنّه جمَّالٌ أو حمّالٌ لشكله أو لطوله، وعرضه ولبزَّته، وما كانت صورته تنبي عن ذكائه ولطفه، وفضله"[5]، وكانت نشأته في دارهِ في دمشق والتي كانت قريبة من دار الأمير أبي الفتيان ابن حيوس فرأى أثر ذلك أقبال الدنيا عليه وهو يتقلب في أعطاف النعيم، فوجد الفتى في نفسه نفوراً من مهنة والده بينما طمح أن يكون أشبه بأبي الفتيان بعد أن شعر بقريحته الشعرية وميلانه للشعر ما دعا به إلى تأديب نفسه بحفظ أشعار المتقدمين والسعي للتعرف على أخبارهم راجياً من ذلك أن يكون شاعراً للشام بعد أميره أبي الفتيان[6].

عاصر ابن الخياط مجموعة من الاضطرابات التي واجهة مجتمعه آنذاك، ففي عصره شهدت في صباه ثورة الدمشقيين على حكم بدر الجمالي، فساءت الأوضاع في دمشق ونزح أهلها عنها، فلم يبق منهم عشر العشر من فرط الفاقة والشغب[7]، فضلاً عن ذلك فقد اتصل بمجموعة من الشخصيات ذات المنزلة والوجاهة، ولكن أكثر تقربه من أبي الفوارس فأحسن له الأمير وفادته واتخذه كاتباً فخدمه مدّة فعرف بعد ذلك بابن الخياط الكاتب، ثم اشتهر بعد ذلك بالشعر ومدح الملوك والأمراء[8].

وللنقاد في شعره عدد من الآراء منها قول ابن خلكان: "من الشعراء المجيدين، طاف البلدان وامتدح الناس"[9]، ومن ذلك قول ابن عساكر: "ختم به ديوان الشعر في دمشق، وكان شاعراً مكثراً، مجيداً محسناً، حفظ لأشعار المتقدمين وأخبارهم"[10]، وغيرهم ممن أثنوا عليه وعلى شعره وخاصة ما جاء منه في مديح الأمراء والملوك.

المبحث الأول: صورة الممدوح الكريم

الكرم سمة إنسانية اجتماعية متأصلة في الذات، وقد تمركزت قيمته في منظومة القيم الخلقية؛ فهو " لب العلاقة بين الذات والآخر، وضابط السلوك بين الإنسان والإنسان"[11]، وقد اتخذ منها الشعراء مادة قيمة للرفع من قيمة ممدوحيهم، وقد رسموا لهم صورة مستوحاة من وحي البيئة والعصر الذي كان يعيش فيه، فضلاً عن تنوع صوره في وصف الممدوح من واحد لآخر تبعاً لقرب الشاعر منه، وما يقدمه الممدوح للشاعر من منزلة، ومن الصور التي رسمها الشاعر ابن الخياط للقاضي فخر الملك أبا علي عمار بن محمد بن عمار في طرابلس الشام سنة (483هـ)، قال: (الكامل)

فَكيفَ تخيمُ والآمَالُ أدْنى ... إليكَ من القداحِ إلى المُجِيلِ
وَقدْ نادَى النَّدى هلْ من رَجاءٍ ... وقالَ النّيلِ هلْ من مُسْتَنيلِ
وَلَمْ أرَ قبلَهَ أملاً جَواداً ... يُشَارُ بهِ إلى عَزمٍ بَخيلِ
عَلامَ تَرومُ الحَصباءُ خِصبًا ... وتَجْزَعُ أن تُعَدَّ منَ المَحولِ
وكَيفَ تَرى مياهُ الفضلِ إلّا ... وَقَدْ رُشِفَتْ بأفْواهِ العُقُولِ[12]

إنَّ المتأمل لصور ابن الخياط التي رسمها للممدوحيه في الكرم خاصة يجد فيها الفخامة في الوصف والحرص على استعمال الألفاظ التي تدل على منزلة الممدوح العالية، فضلاً عن بيان حجم العطاء، وهذا المنهج المتبع لديه لا يأتي عن فراغ إنما يدل على حاجة أنا الشاعر المحفزة لملكته الشعرية والساعية لتحقيق مبتغاه، في هذا النص كان الشاعر شديد الحرص في اختيار ألفاظه الدالة على شدّة كرم الممدوح، وهي صور حية تدل على واقعية الشاعر في تشبيهاته، فالكرم في هذا النص كما يرى الشاعر ليس مجرد صفة عابرة عند الممدوح بل هو بنفس إنساني يلامس الأرواح قب الأبدان ولذلك قال الشاعر " **وكَيفَ تَرى مياهُ الفضلِ إلّا ـ وَقَدْ رُشِفَتْ بأفْواهِ العُقُولِ"**، فهي صورة وضحت لنا بجلاء منزلة الآخر الممدوح قيمة عطائه من وجهة نظر الشاعر، في موضع آخر من القصيدة نفسها نراه يقول: (الكامل)

ترفَّعَ مَطلبِي عَن كلِّ جودٍ ... فَمَا أبْغِي بجُودِكَ مِنْ بديلِ
ومالِي لا أعافَ الطرقَ وردًا ... وقدْ عرضت حياضُ السَّلسَبيلِ
وقدْ علمتَنِي خُلُقَ المَعَالِي ... فمَا أرتَاحُ إلّا للنَبيلِ
ولِي عنْد الزّمان مطالباتٌ ... فَمَا عُذرِي وأنتَ بِهَا كفيلِي[13]

يمكن عدّ تعبير الشاعر بهذه الصورة عن كرم الممدوح تعويضاً نفسياً عمّن سواه بعد أن تلقاه من سطوة الواقع والحاجة للتنقل بين الممدوحين من أجل التكسب، فلا حاجة له بتكرم غيره عليه؛ لأنه يدرك أنّ القيمة الحقيقية ليس فيما يعطى بل في روح العطاء نفسها، ولهذا فما كان منه أن يرد له تلك العطايا بالمثل العليا المتزاحمة، المحفوفة بالفضائل الدالة على سمو ذات الممدوح وشدة كرمه، هذا ما جعل نص الشاعر متشحاً بفضائله، ممزوجاً بالفخر والتسامي، فضلاً عن الاكتفاء

الذاتي الذي حملته ذات الشاعر وتعاليها عن ذل التكسب من مدح غير هذا الممدوح، وواجب العطاء قبل الطلب إكراماً من الآخر وتوقيراً له. وفي قوله يمدح تاج الملك: (البسيط)

أمَـا العُفَـاةُ فأَنـتَ خيـرُ رَجَائِهَـا والمُكرماتُ فأنتَ بَدرُ سمائِها
ما أحسنَت بكَ ظنَّها في رغبةٍ أو رهبَـةٍ فَعِدَاكَ حسنُ ثنائِهَا
لَولاكَ يَا عـزَّ المُلُـوكِ لعَزَّهَـا ملكٌ يُجيبُ نداه قبل ندائهَـا
أحْـيَـيتُها قَـبلَ السُـؤال بأنـعُـمٍ رُدَّت وُجُـوه السائلينَ بمائها
حَمداً لأيَّـامٍ سَمَـا بـكَ فَخْرَهَـا أنَّـى تَذُمُ وأنـتَ مِنْ أبْنَـائِهَـا
من ذا يقوم بشكرها وعلاك من حسناتها ونداك من آلائِها (14)

يمنح الشاعر ممدوحه مجموعة من المفاخر والميزات التي ترفع من منزلته تمهيداً لاستجلاء خصلة الكرم لديه، ودلالة على تعفف ذات الشاعر عن ذل السؤال، فهو يحال الوصول إلى طلبه عبر ما قدمه من صور لها أثرها الفعال في ذات الآخر وتحفيزه بالإسراع بالعطاء، فقد جعل منه أصل لكلّ المحاسن والمكرمات، كما أن حسن الظن الذي حمله مصحوب لديه بضمان تحقق أمانيه، وهذا المعنى حمله لممدوح آخر عرف بابن الحاجب علي بن حامد الأتابكي، حين وضع له صورة كنائية رائعة في البيت الثالث وهي دلالة على شدّة كرم الممدوح : (المتقارب)

تَجمَّـع فِيـهِ خِـلالُ الـكِـرامِ قدْ يجمَعُ الفضلُ في واحدِ
فتىً يحجبُ الفضلَ عن طالبيهِ ولا يحجبُ الرَّفدَ عن قاصدِ
يـــدِلُّ عَلَـى جُـودهِ بئـرهِ وقد يُعرف الروضُ بالرائِدِ(15)

فالأماني التي يتأملها الشاعر محققة مضمونه، قد انتخب اللفظ (يـــدِلُّ عَلَـى جُـودهِ بئـرهِ) دلاله على كثرة عطائه وكرمه، فضلاً عن تشبيه بالروض الرائد وهو رمز الخير والعطاء النامي، فالممدوح عبارة عن صورة جامعة لمكارم الأخلاق فضلا عن كرمه، لذلك وجد فيه مطلبه منذ بداية الأمر، (فبقدر ما يكن الثناء المسبق ناجحاً بقدر ما يكون العطاء كبيراً، محدثاً بذلك انقلاباً في الصيغة المعهودة من العلاقات)(16)، وبذلك يجعل من الممدوح كفيلاً بتحقيق مطالبه.

الواضح من نصوص الشاعر التي سخرها لمدح الأمراء والقادة لجذب استحسانهم ونيل كرمهم بأنها توحي على كثرة عطائهم، كما أنه يؤمن بأن حسن الثناء خير وسيلة لرفد خيراتهم، فضلاً عن بيان حاجته لهم والسعي للخلاص مما هو عليه من قلة الحاجة.

المبحث الثاني: صورة الممدوح القائد

تعد الشجاعة من السمات المهمة التي تغنى بها العرب قديماً، بل هي فضيلة بالنسبة للإنسان العربي، حتى أصبحت في مقدمة الفضائل التي يمدح بها الشعراء ممدوحيهم وفي مختلف العصور، وللنقاد القدماء نصيب وافرٌ في وصفها، وفي مقدمتهم قدامة بن جعفر إذ قال: " لما كانت فضائل الناس من حيث أنهم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق في ذلك إنّما هي: العقل، والشجاعة، والعدل، والعفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الخصال الأربع مصيباً، والمادح بغيرها مخطئاً"(17)، وهي صفات في جوهرها نفسية اجتماعية سعى قدامة وعدد من النقاد عبرها لإبراز قيمة ممدوحيهم وبيان منزلتهم

في مجتمعاتهم عبر العصور، فـعبد الله الغذامي يرى: " هناك قيمتان مركزيتان في النظام القبلي هما الكرم والشجاعة، الكرم قيمة سلمية، والشجاعة قيمة حربية، وحولهما يحتكم التصور القبلي للحياة والانسان، فالأنبل هو الأكرم وهو الأشجع، ولا تقوم الحياة القبلية الا بهاتين القيمتين"[18]، وشاعرنا خير من رسم صور تحمل هذين السمتين للممدوحيه، ومن ذلك قوله في أبي الفارس الأمير محمد بن مالك بحماة: (البسيط)

ومثلُكَ يا محمدُ سَاقَ جيشاً يُكَلِفُ نفسَ رائيهِ السِّياقا
إذا الخيل العتاقُ حَمَلْن همَّا فَهَمُكَ يَحمِلُ الخيْلَ العِتاقا
ومن عشقَ الدقائق السّمر يوماً فإنَكَ تعشقُ السّمر الدَّقاقا
وتَخْتـرِم المُلُوك بهَا اختراماً وتخترِق العَجاجَ بها اختراقا
يسرُّكَ أن تحاكي الجيش كأساً من الحرب اصطباحاً واغتباقا
وأشجَع من رأيناه شُجاعٌ يلاقيه السّرورُ أن يلاقي [19]

يلجأ الشاعر إلى استعمال ألفاظ جزلة قوية تدل على شدةّ بأس الممدوح في الحرب وقوته، وقوة فروسيته، ليعكس بذلك لنا اسلوباً بلاغياً غنياً بالتشبيهات مثل تشبيهه بالجبل الثابت، والكنايات (من الحرب اصطباحاً واغتباقا) دلالة على ديمومته في مختلف الأوقات والاستعارة في قوله: (تحترق العجاج بها احتراقاً) الدالة على احتراق الجميع بدخان الحرب الناتج عن قوة بأسه وسحقه للآخر في الحروب، فهو يرسم لنا صورة لمقاتل مستبد لا يهاب، فضلاً عن استعداده واستمراريته في المحاربة، وفي هذا يحاول الشاعر تحفيز وحزم الممدوح وهمته على الحرب، وبذلك أضاف بريق الأمل عبر تشجيع القائد، وتحريضه ببث روح الأمل فيه، فالالفاظ والصور التي استعملها الشاعر فهي بمثابة سلاح فعَّال له أثره الواضح في نفس الآخر في التحريض على القتال، وبهذا لا يمكن اغفال إن (الشعر يمكن أن يتحول إلى سلاح فعال يوحد المشاعر الانفعالات، سواء في الجبهة الداخلية أو القتالية، فالمشاعر عندما تتحل إلى مضمون شعري في القصيدة نجدها تتجسد بالفعل في وجدان كل قارئ على حدة، بحيث تصبح تجربته الخاصة به وحدة، في حين أنها تربطه في واقع الأمر إلى أبناء وطنه في وحده وجدانيه لا تقبل الانفصام)[20].، وفي قوله في منير الدولة والي صور: (الكامل)

لَـه الرأي والبـأس اللَّـذان تكفَّـلا لأعدائهِ أوحَى حِمامٍ يُبيرُها
سيوفٌ من التدبيرِ والفتكِ لم يزلْ ومُغمَدُهـا فـي كـفّـهِ وشَهيرُها
رأى أرضَ صـورٍ نُهبـةً لمُغَالبٍ يُنـازلهـا يَوماً ويـوماً يُـغيرُهَا
تداركهـا النَّصر فـي صدرِ سيفهِ أخ عزمـاتٍ لا يُخـافُ فُتُورهـا
هُمـامٌ إذا مَـا حلّ يَومـاً بِبَلـدةٍ فخندقها حدُّ الحسامِ وسُورُهـا [21]

أخذ نص الشاعر بعداً آخر من تحريض الآخر على القتال، وبث روح العزم فيه عبر وصفه بمجموعة من الصفات التي ترفع من همته، فالنصر محتدم على يده، إذ رسم له صورة الغازي الهمام الذي لا تنفك الحرب إلا بنصر سيفه عليهم، فهو يستعرض بوصفه وصوره قوة الحاكم وشدّة بأسه، وقد ارتبطت دلالة السيوف في قوله:(سيوف من التدبير والفتك) لكثرة النزال في القتال، مواجهة الأعداء، فقد لازمت كفه حمل السيوف، ولم تفارق يده أوتار غمده، وهو لا يمل من حملها، ففي صوره هذه يحتفي بالأمير الفارس المأمول منه، ومن صفاته المنتزعة التي أضافها الشاعر

له، فالشاعر في وصفه للممدوح يطمح إلى تحقيق غاية الإقناع التي تؤازر رؤية الحاكم، ولـ " هذا الاقناع الفني ضرورة ملحة بدونها يتحول الأديب من فنان إلى خطيب، أو رجل اعلام، أو مؤرخ لم يتخصص في التاريخ"[22]، وقوله في تاج الملوك: (الطويل)

حساماً نرى في صفحهِ الصفح النّدى في حدّه الجدَّ المُظَّفر والنَّصرا
في قربهِ الـزُّلفَى في نيلهِ العُلَى وفي حكمهِ البقيا وفي ظلهِ اليُسرا
فتَى لا يَرى إلّا المحامدَ مَغنَماً ولا يقتني إلا الثَّناءَ لهُ ذُخرا
ومُقرَبَةً جُردا زُغْفاً سَوابِغاً وهِنديّةً بِيضَاً وخطيَّةً سُمرا
إذا صَالَ بأساً قطع البيضَ والقَنَا وإنْ فاضَ جوداً بَخّل الدَّيمَ الغزرا
لعمري لئِن أَعدت أنامِلُكَ الحَيا سماحاً لَقَدْ أَعدت شمائِلُك الخَمْرا[23]

أجاد الشاعر في تشبيهاته لممدوحه في النص في رسم صورة عبر الحديث عن عظم شجاعته، حسن نبله، سمو منزلته، فهو جامع لسمات متعددة في مقدمتها الشجاعة وقوة البأس، فالتشبيه الذي عبر عنه الشاعر وكما يرى الجرجاني: " إذا جاء في أعقاب المعاني ينقله من الصورة الأصلية إلى صورته، فيكون له وقعٌ في النفوس ولا سيما المديح، فيصير أبهى وأفخم وأنبل في النفوس أعظم، وأهز للعطف"، والشاعر هنا استعمل مجموعة من القيم التي ساعدته في بناء صورة مثالية للممدوح، من الشجاعة، السماحة، الكرم، حسن الخلق، فضلاً عن الأسلوب المباشر في الوصف الذي لا يتيح التأمل وبذل الجهد في الوصول إلى المعنى المراد مما جعل القصيدة تأتي متناسقة مع الحدث العام للقصيدة وانفعالات الذات الشاعرة، ومن ذلك ما جاء في عضد الدولة: (الخفيف)

حقيقٌ إذا ما انتضى سيفه بأنْ يَجْعَل الهام للسّيفِ غمدا
زعيمُ الجيش لقد أعجزتْ أياديكَ واصفها أن تُحدّا
وأَمْعَنَ ذِكرُكَ في الخافقينِ شرْقاً وَغرْباً وغوراً نجدا
فسارَا مَسيرَ هلالَ السَّما ءِ يزدادُ نوراً إذا ازدادَ بُعْدا [24]

أثنى الشاعر في صورته على ممدوحه بصوره مباشرة واصفاً إياه بالفارس، جاعلاً منه قائداً أزلياً أهلاً لقيادة الجيوش، ملحاً في التوكيد على تلك الخصال الداعمة لتثبيت فكرته والباسه لباس الشجاعة المطلقة البيّنة في مختلف الأوقات، لذا نراه يحشد أبياته بالخصال المتضافرة مع الصورة لتظهر الأمير القائد بصورة المثال الذي تقصر أمامه أيادي الأمراء القادة.

مما وجدناه في صورة الممدوح لدى ابن الخياط أنها امتداد للشعر العربي القديم في وصف الفروسية، وإبراز صفة الشجاعة، فهي صور ذات أبعاد تحريضية ذات مضامين ثقافية متناسقة مع ثقافة عصر الشاعر، فضلاً عن المغالاة في بيان تلك الصفة .

المبحث الثالث: سمات مختلفة:

يسعى ابن الخياط في عدد غير قليل من قصائده أن يظهر ممدوحه بصورة المثال عبر إحاطته بصفات متعددة، هي في أغلبها صفات تقليدية متوارثة عن الشعراء العرب، يهدف عبرها كسب ثقة الممدوح ونيل قربه وتكرمهِ، من هذه السمات العدل؛ إذ يحرص الشاعر في هذه السمة أن يظهر ممدوحه في صورة الحاكم العادل، المحقق للعدالة المدافع عن المظلوم؛ إذ تمثل هذه السمة أحدى القيم الأساسية في المدح منذ الجاهلية إلى عصرنا هذا، ولم يغفل الشاعر هذه القيمة الجمالية

والمثالية في رسم صورة ممدوحه، فإلى جانب الشجاعة والكرم ، فهو عادل في حكمه، من ذلك ما جاء في قوله في وجيه الدولة: (الكامل)

أنت للمسلمينَ حرزٌ وحصنُ ولراجي نداك ذُخرٌ كنزُ
أبداً ما تزال عطفاً عليهِم ودِفاعاً عَنهُم تحجُ تغزو
أصبحت هذه الرعيةَ من عدْ لِكَ في ظلّ نعمةٍ لا تَبزُّ
سكنت معقلاً من الأمن لا تُز عَجُ يمــاً به لا تستفزُ (25)

بالغ الشاعر في تعداد صفات ممدوحه بجعله الحصن الآمن، والكنز الدائم الذي لا يحيد، والمدافع عنهم في مختلف الأوقات، فقد عمّ عدله الجميع، وقد أدى اجتماع هذه القيم لدى الممدوح إلى تشكيل صورة مثالية متكاملة تنم عن شدّة تأثر الشاعر بالآخر الذي يسمو بالمعالي، ومما حرص عليه الشاعر أيضاً هو اظهار ممدوحه بالهيبة الدينية، والأخلاق الاجتماعية الكريمة ليسمو به، ومنه ما قاله في أبي اليمن سعيد بن علي بن عبد اللطيف التنوخي المعري: (الكامل)

يرى المجد أفضل ما يقتنيه والحمد أشرف ما يكتسبْ
شريف المَرام منيف المقَــام عَرب النَّدى والنُّهَى والأدبْ
فتًــى بالعُــلــى أبداً مُغـرَم وبالجود مُغرى وبالمجد صبُّ
تعوّد بالجود صرف الهِمَم ودفع المُلم كشفَ الكَرب (26)

يحمل هذا النص صورة فريدة من الفضائل تحلى بها الممدوح تكشف عن مدى مكارمه التي تبيّن علو منزلته، فقد جمع من خصال المجد والأدب ، الخلق الحسن بما تسمو بها ذاته والتي ترفع من قبول الناس له وتقربهم منه، فهو يرى المجد أقرب إليه وأعظم ما يمتلكه، فضلاً عن كرمه الذي يفيض حتى جعل منه رمز للمجد والقوة في عصره، من الخصال التي مدح بها الامراء والملوك الإيمان؛ إذ يتجه الشاعر في كثير من صوره إلى إضفاء الصفات الإيمانية على ممدوحيه فضلاً عن الفضائل الأخر، منها ما جاء في جلال الملك: (البسيط)

وقى الله فيك الدّين البأس النّدى عُيُون العِدى ماجاوَرَ العينَ موقها
عَزَفْتَ عن الدُّنيا فلو أنَّ مُلكها لِمُلكِكَ بعضٌ ما اطباكَ أنيقُها
خشــعٌ وإيمــانٌ عـدلٌ ورأفــةٌ فَقَدْ حُقَّ بالنُعماءِ مِنكَ حَقِيقُها
عَلَوتَ فلمِ تَبعُد على طالبٍ ندىً كمثمِرةٍ يحمي جناها بسُوقُها
فلا تعدم الآمال ربعكَ مَوئِلاً بــهِ فُــكَ عَـانـيها وعـزّ َ طليقُها
سبقتَ إلى غاياتٍ كلِ خفيةٍ وما يُدركُ الغاياتِ إلّا سبوقُها(27)

يصور الشاعر ممدوحه بصورة المؤمن الخشوع، القائم بالعدل بين رعيته، وهذا الايمان لا يأتي اعتباطاً إنما نابع من ذاته الورعة الباحثة عن التقى نتيجة ما تحمله من فضائل حسنه، فهو ركز للقوة العدالة، حماية الناس من المظالم، فضلا عن شرف نسبه بين الناس، وهذا ما دفع بالأعداء تحال النيل منه في قوله: (عين العدى) فضلا عن عيون الحساد، فهو خيره يعمّ الجميع كالغيث الوفير بعيد المدى، ومن السمات الأخرى السماحة ومنه ما قاله في عمه أبي المناقب: (البسيط)

يدٌ لكَ عندي لا تؤدَّى حُقُوقُها بشكرٍ وأيُّ الشّكر منّي يُطيقُها
سماحٌ وبِشرٌ كالسَّحائِبُ ثَرَّةٌ توالى حَياها واستطارت بروقها

كم كربةٍ ناديتُ جودكَ عندها فما رامني حتّى تَفَرَّجَ ضِيقُها
ومكرمــةٍ واليتَهــا وصنيعــةٍ زكتْ لَكَ عنْدي حِدثُهــا عَتيقُها
مَناقِبُ إن تُنسَب فأنت لها أبٌ وعلياءُ إنْ عُدَّتْ فأنتَ شقيقُها
ولَّيتُهــا نفســاً لديك كريمةً تبيتُ أغاريدُ السَّماحِ تشُوقها (28)

يسترسل الشاعر في رسم الصفات المتعددة للممدوح وبيان فضائله، شكراً وإكراماً لما قدمه له فهو يقر بعجزه أمامه وأمام عطاياه حمايته له، فقد صوره بأنه أصل لكلّ المعالي، والفضائل السامية والسجايا الحسنة بأسلوب جزل، وألفاظ تتناسب مع مقام الممدوح، ولا يمكن التشكي في أن عاطفة الشاعر في هذه الأبيات يغلب عليها الاعجاب والامتنان تجاه الممدوح؛ ذلك فهو يجيزه شكراً على ما قدمه وليس طلباً منه. ومنه قوله في وجيه الدولة أبا محمد بن إسماعيل بن أبي الرضى المحسن بن الحسن الأنصاري: (السريع)

قد نال من شرف الفعال ذخيرةً تبقى إذا كاد الزمان يزولا
واستخلص الحمد الجزيل لنفسهِ فحواه واتَّخذ السّماحَ خليلا
مَا تـرَاه الــدَّهر إلاَّ مَـائلاً للمُكـرمـاتِ البَاهِرات فعولا
إنَّ سيل عند الجودِ كان غمامةً أو عُدَّ يومَ البأس كان قبِيلا
هَكــاً تطول بحَزمــهِ عزائِمَــاً بتكاً كما اخترط الكُماةُ نصولاً (29)

يرسم الشاعر صورة جميلة تحمل من المعاني ألطفها، حتى جعل من الدهر شخص يميل وينحني اعجاباً منه لمعالي وفعال هذا الممدوح من سمو الشرف، وجزيل الحمد، السماحة، والجود الوافر، فضلاً عن اظهار الشجاعة عند الحاجة، وقد افرط في استعمال التشبيهات في هذا النص ليظهر لنا صورة الممدوح وهي تشبيهات مبالغ فيها في الوصف، فهي تشبيهات حسيه وهو ما زاد من بريق الصورة وتألقها.

ضمّ هذا المبحث مجموعة من الصور التي رسمها ابن الخياط لممدوحه، فهو يرسم صورة تحمل مجموعة من الفضائل التي يلصقها بالممدوح ولا يكتفي بوصفه بسمة واحدة وهذا ما جعل صورة مليئة الإثارة.

الخاتمة:

هذا البحث يدرس صورة الممدوح في شعر ابن الخياط الدمشقي، وتوصلنا فيه إلى مجموعة من النتائج من أهمها:

1ـ شكلت صورة الشجاعة المرتبة الأولى في رسم صورة الممدوح في ديوان الشاعر؛ ولعل ذلك ناتج عن امتلاكه عدد من الممدوحين من الامراء والملوك والقادة ما شكل قيمة اجتماعية سامية، فضلاً عن رغبتهم في أن يوصفوا بمثل هذه الفضائل دلالة على عظمة سلطانهم وقوتهم، ومن جهة أخرى فهو يشكل جانب إعلامي مهم في اظهار قوتهم وشياع سلطتهم بين الناس وأمام العدو.

2ـ أما الصفات التي تحمل صورة الكرم فقد جاءت في المرتبة الثانية؛ وذلك لما تحمله من قيمة اجتماعية، وإن كان ذلك يدل على الكثرة والشمول، وهي صور تقليدية متوارثة من التراث الشعري العربي.

3ـ مزج الشاعر بين مجموعة من القيم والسمات التي تحمل من الفضائل السامية المتنوعة في وصف ممدوحينهم، وإحاطتها جميعا بالإيمان والتقوى لإضفاء هالة دينية واجتماعية في بعض صوره على الممدوح وكأنما كل تلك الصفات كانت متأصله فيهم.

4ـ اعتمدت صوره في الغالب على الصورة التشبيهية أكثر من الاستعارة والكناية، فضلاً عن التشخيص في بعض الصور، كما يغلب عليها التشبيه الحسي؛ وذلك لكون الصور الحسية تصف شكل الممدوح وهذا ما يهتم به الممدوح والشاعر على حد السواء.

([1]) ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، ص 7، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، نصرت عبد الرحمن، ص: 8، مقدمة لدراسة الصورة، نعيم اليافي، ص: 49، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، بشرى موسى: ص 25.

([2]) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: 121.

([3]) الصورة الحسية في الشعر العربي: 30.

([4]) ينظر: وفيات الأعيان: 145/1، خريد القصر وجريدة العصر: 142/1، سير أعلام النبلاء: 579/11، الوافي بالوفيات: 45/8، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: 227/5، تاريخ مدينة دمشق: 5/ 419، الأعلام: 214/1.

([5]) خريدة القصر وجريدة العصر: 144/1.

([6]) ينظر: مقدمة ديوان ابن الخياط الدمشقي: 7.

([7]) ينظر: خطط الشام: 1/ 248.

([8]) ينظر: سير أعلام النبلاء: 11:580.

([9]) وفيات الأعيان:1/ 145.

([10]) تاريخ مدينة دمشق:5/ 419.

([11]) النقد الثقافي: 153.

([12]) الديوان: 55.

([13]) الديوان: 58.

([14]) الديوان: 231.

([15]) الديوان: 279 – 280.

([16]) في النص الشعري مقاربات منهجية:110.

([17]) نقد الشعر: 39.

([18]) النقد الثقافي – قراءة في الأنساق الثقافية العربية : 145.

([19]) الديوان: 10.

([20]) ينظر: موسوعة الفكر الأدبي: 167.

([21]) الديوان: 136.

([22]) موسوعة الفكر الأدبي: 169.

([23]) الديوان: 234 – 235.

([24]) الديوان: 183.

([25]) الديوان: 268.

([26]) الديوان: 314.

([27]) الديوان: 47.

([28]) الديوان: 49.

([29]) الديوان: 293 – 294.

المصادر والمراجع:

1. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال النساء من العرب المستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، ط15، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان.
2. تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأماثل أ اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، تصنيف الإمام العالم الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر (571هـ)، ت: أبي سعيد عمر بن غرامة العموري، ط1، دار الفكر، 1998م.
3. خريدة القصر وجريدة العصر، للعماد الاصفهاني الكاتب، قسم شعراء الشام، ت: الدكتور: شكري فيصل، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، المطبعة الهاشمية، 1959م.
4. خطط الشام، محمد كرد علي، ط3، مكتبة النوري، دمشق، 1983م.
5. ديوان ابن الخياط أبي عبد الله أحمد بن محمد بن علي التغلبي المعروف بابن الخياط الدمشقي (450 ـ 517هـ)، ت: خليل مردم بك، الطبعة الهاشمية ـ دمشق، 1958.
6. سير أعلام النبلاء، الامام بن شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (748هـ)، اعتنى به محمد بن عبادي عبد الحليم ، ط1، مكتبة الصفا، 2003م.
7. الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، بشرى موسى صالح ، ط1، المركز الثقافي العربي ، بيروت 1994م .
8. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، الدكتور: جابر عصفور، ط2، المركز الثقافي العربي، 1992م.
9. الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، نصرت عبد الرحمن
10. في النص الشعري العربي مقاربات منهجية، الدكتور سامي سويدان، ط1، دار الآداب، بيروت، 1989م.
11. مقدمة لدراسة الصورة الفنية، الدكتور: نعيم اليافي، منشرات زارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1982م.
12. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني (684هـ)، ت: محمد الحبيب ابن خوجه، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007م.
13. موسوعة الفكر الأدبي، الدكتور نبيل راغب، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002م.
14. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (813– 874هـ) ، وزارة الثقافة ، مصر، 1963م.
15. النقد الثقافي ـ قراءة في الأنساق الثقافية العربية، بد الله محمد الغذامي، ط5، المركز الثقافي، الدار البيضاء ، المغرب، 2012م.
16. الوافي بالوفيات، صلاح الدين بن أيبك الصفدي(764هـ)، ت: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان ، 2000م.
17. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد، بن أبي بكر بن خلكان (681هـ)، ت: إحسان عباس، ط4، دار صادر، بيروت ـ لبنان، 2005م.

Research Summary :
The image represents a fundamental structure of the poetic text across different eras, as it serves as the verbal depiction through which the poet conveys his ideas to the audience in various themes of poetry. In the Dīwān of the poet Ibn al-Khayyāt al-Dimashqī, scarcely any poem is devoid of images that express his thoughts, emotions, and imagination, for they are

its visible face. This is especially evident in the description of the praised figure, highlighting his qualities. The poet expressed this in three main directions: first, the image of the praised as generous and noble; second, the image of the praised as a heroic leader; and third, the image of the praised distinguished by unique traits.

Keywords: image, praised figure, Ibn al-Khayyāt al-Dimashqī.